تقديـم

الرحلة والمرتحل

كثيرًا ما سمعنا عن موسوعة الدكتور عبد الوهاب المسيرى (رحمه الله) حول اليهودية والصهيونية، وقد اعتدنا أن نقرأ ما كان يكتب من مقالات وتحليلات فى جريدة الأهرام وغيرها من الصحف والمجلات، هذا بالإضافة إلى كتبه فى السياسة وعلم الاجتماع والأدب. ولم تكن مفاجأة لقرائه أن يحصل د. المسيرى على **جائزة الدولة التقديرية فى الآداب** عام 2005، كما سبق أن حصل على **جائزة «العويس» العالمية** عن مجمل أعماله وأهمها سفره العظيم «موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: نموذج تفسيرى جديد».

قارئى الكريم...

ليلة أن التقيت مع كتاب د. المسيرى «**رحلتى الفكرية فى البذور والجذور والثمر، سيرة غير ذاتية غير موضوعية**»، لم أترك الكتاب من يدى، بل أصبحت أحداث وأفكار الرحلة من الحديث اليومى مع أفراد أسرتى، كما كنت أقرأ على زوارى بعضًا من فقراتها وأناقش معهم أفكارها. وكثيرًا ما أدرت حوارات حول الكتاب مع طلبتى فى كلية الطب، جامعة عين شمس، وقد أبدوا تجاوبًا كبيرًا وتحمسًا لأفكاره، **فأيقنت حاجة الشباب للاطلاع على هذه الرحلة الفكرية من البذور والجذور حتى الثمر.**

منهج كتاب المسيرى

وأتركك مع صاحب الرحلة ليقدم لرحلته بنفسه، فى مقتطفات اخترتها من مقدمة كتابه، حرصت أن تبين **المنهج الذى اتبعه فى كتابته لسيرته:**

«والصفحات التالية هى قصة حياتى أو رحلتى الفكرية كمثقف عربى مصرى، رحلة ترابطت فيها **الأفكار (الثمر) بجذورها (حياتى الثقافية بأسرها) وببذورها (تكوينى فى دمنهور)**. وهى ليست قصة حياتى الخاصة زوجًا وأبًا وابنًا وصديقًا وعدوًا، فهى ترصد تحولاتى الفردية فى الفكر والمنهج، كما تؤرخ فى الوقت نفسه لجيلى، أو لقطاع منه، فتحولاتى ليست بأى حال منقطعة الصلة بما يحدث حولى، لذلك فهى (سيرة غير ذاتية)».

«كذلك فإن هذه الرحلة الفكرية (سيرة غير موضوعية) أى لا تقف عند الموضوعات بل تلتقى فيها القضايا الفكرية العامة (العام) مع أحداث ووقائع محددة فى حياتى الشخصية (الخاص). لذلك حينما طلبت من الرسام كمال بلاطة أن يرسم لى صورة [بورتريه] بمناسبة وصولى سن الأربعين، قال إن من الأفضل رسم أعمالى، فأخذ بعض مؤلفاتى ورسمها، فكان البورتريه الذى رسمه صورة غير ذاتية غير موضوعية».

وإذ يحمل د. المسيرى هَمَّ المستقبل على كتفيه، فقد ختم تقديمه لرحلته **بدعوة وجهها للمفكرين العرب:**

«ولتكن هذه السيرة دعوة للمفكرين العرب **أن يكتبوا سيرهم غير الذاتية غير الموضوعية** التى تحتوى على تلخيص لأفكارهم وبذورها وكيفية تشكلها، **ليضعوا خبرتهم تحت تصرف الأجيال الجديدة**. ومما يجعل المسألة أكثر إلحاحًا تعاظم الفجوة بين الأجيال، مما يؤدى إلى عدم توارث الحكمة والمعرفة، فأخشى ما أخشاه أن تبدأ الأجيال القادمة من نقطة الصفر».

وكما حرص د. المسيرى على **ألا تبدأ الأجيال القادمة من نقطة الصفر**، فقد التقت مشاعرى معه حول نفس الفكرة، خاصة بعد ما لمسته من حاجة وتجاوب وتعطش من طلبتى، كما لمسه بالتأكيد كل من تعامل مع الشباب ومشاكلهم. لذلك فقد آثرت **أن أُبَسِّط «رحلة المسيرى الفكرية»** لتكون مع عمقها الكبير فى متناول أفهام الشباب وغير المتخصصين، فيتتبعون البذور والجذور ويُطعَمون من الثمر، فى زمن تسود فيه العولمة وما بعد الحداثة وطمس الهُوِيَّة، كما تسود فيه الصراعات المُوَجِّهة بعد ثورات ما عُرف بـ«بالربيع العربى».

النموذج المعرفى فى فكر د. المسيرى

لا نستطيع النفاذ إلى عالم د. المسيرى إلا إذا استوعبنا مفهومه حول «**النموذج المعرفى كأداة للإدراك والتحليل**». وإذا كنا سنُفَصِّل الحديث فيما بعد عن هذا المفهوم المهم فينبغى أن نشير إليه فى المقدمة، فنقول:

إن الإنسان لا يدرك شيئًا مما حوله بشكل مباشر، وإنما من خلال «**نموذج معرفى**» يتم تكوينه تدريجيًّا ـ أحيانًا بشكلٍ واعٍ وغالبًا بشكل غير واعٍ ـ حتى يصبح جزءًا من وجدانه وسليقته وإدراكه. بذلك يصبح النموذج المعرفى هو **المنظار الذى يُنظَر من خلاله إلى الواقع**، أمَّا الإدراك المباشر للواقع بتفاصيله المتناثرة فهو تلقٍ سطحى للأمور (كعدسة الكاميرا) لا يؤدى إلى أى فهم حقيقى.

ولنضرب مثالًا للنموذج المعرفى: إذا نظرنا إلى «**واقع المسلمين**»، فإن من يتخذون «**فكر المؤامرة**» كنموذج معرفى ينظرون من خلاله للواقع، سيفسرون ما نعانى منه بأنه نتيجة تحالف قوى مختلفة آثرت ألا تقوم للمسلمين قائمة. أمَّا من يتمتعون بالقدرة على النقد الذاتى ويعتبرون أن النجاح هو محصلة

مقدمات وأسباب (إن أخذنا بها أصبنا النجاح وإن أهملناها أصابنا الفشل) فهؤلاء ينظرون إلى الواقع من خلال نموذج «**الأخذ بالأسباب**» ويُحَمِّلون تقصيرنا مسئولية ما نحن فيه إلى حد بعيد.

وكذلك إذا نظرنا إلى «**هجمة الجراد الشرسة على البلاد**» فى أوائل عام 2005، نجد أن معظم الأصوليين الإسلاميين يتبنون نموذجًا يشير إلى الواقعة باعتبارها «**عقوبة من الله ﷻ**» كما حدث مع قوم فرعون. أمَّا أحزاب المعارضة فتتبنى نموذج «**تقصير الحكومة والجهات المختصة**» فى رصد الهجمة والتعامل معها قبل وصول الجراد إلى المناطق السكنية والأراضى الزراعية.

ويضرب د. المسيرى مثالًا طريفًا لدور النموذج المعرفى على المستوى الشخصى، فيروى لنا كيف أن عددًا من السيدات فى الولايات المتحدة أخبرنه (فى مناسبات وظروف مختلفة) أن **رائحته جميلة للغاية** Dr. Messiri, you smell so nice، وبدأت تساوره الأوهام بأن **سحره لا يقاوم**، حتى أخبرته زوجة صديقه المؤرخ كافين رايلى أن عطر (أولد سبايس) الذى اشتراه مع زوجها كان هو الوحيد تقريبًا المُتاح فى الستينيات، ولا بد أن آباء هؤلاء النسوة كانوا يستعملونه، ومن ثم فهو يذكرهن بطفولتهن، حينئذ تغيرت تمامًا رؤية د. المسيرى للموقف بعد معرفة السبب (أى معرفة النموذج المعرفى الكامن وراء الموقف): اختفت فورًا صورة **دون جوان الخطير** وحلت محلها صورة الأب الوقور الحنون. وتبين هذه الحادثة، كيف **يصبح واقعنا تفاصيل متناثرة وأوهامًا إن لم نفهم النموذج المعرفى الحاكم وراءه.**

وبرغم أن هذه السيرة كُتبت من خلال موضوعات، فقد وجد د. المسيرى من المفيد أن يقدم للقارئ **خريطة هيكلية لمراحل حياته الزمنية والمكانية:**

1938م الميلاد فى دمنهور (8 من أكتوبر).

1944 الالتحاق بمدرسة دمنهور الابتدائية، ثم مدرسة دمنهور الثانوية. حصلت على التوجيهية، أدبى فلسفة، عام 1955.

1955 الالتحاق بقسم اللغة الإنجليزية، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية.

1959 التخرج من الكلية والتعيين فيها معيدًا فى العام الذى يليه.

1963 السفر إلى الولايات المتحدة للالتحاق بجامعة كولومبيا Columbia فى نيويورك حيث حصلت على الماچستير عام 1964.

1964 الالتحاق بجامعة رتجرز Rutgers فى مدينة نيو برونزويك New Brunswick فى ولاية نيوچرسى حيث حصلت على الدكتوراه عام 1969.

1969 العودة إلى مصر للتدريس فى قسم اللغة الإنجليزية وآدابها فى كلية البنات جامعة عين شمس.

1970 التعيين لفترة قصيرة مستشارًا لوزير الإرشاد (الأستاذ محمد حسنين هيكل).

1972 صدور أول مؤلفاتى الحقيقية. **نهاية التاريخ: مقدمة لدراسة بنية الفكر الصهيونى.**

1975 صدور «**موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية: رؤية نقدية**»، يُشار إليها فى هذه الرحلة بـ موسوعة 1975. ثم العودة إلى الولايات المتحدة لانضم لأسرتى بعد أن ذهبت زوجتى إلى هناك للحصول على الدكتوراه. وقد عملت فى هذه الفترة مستشارًا ثقافيًا للوفد الدائم لجامعة الدول العربية لدى هيئة الأمم المتحدة بنيويورك.

1979 العودة إلى مصر للتدريس فى كلية البنات.

1983 الانتقال إلى الرياض للتدريس فى جامعة الملك سعود.

1989 الانتقال إلى الكويت للتدريس فى جامعة الكويت.

1990 العودة إلى مصر والاستقالة من الجامعة حتى أتفرغ تمامًا لكتابة الموسوعة.

1992 صدور كتاب **إشكالية التحيز: رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد.**

1996 صدور كتاب **الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ: رؤية حضارية جديدة.**

1999 صدور **الموسوعة.**

2000 صدور بعض قصص الأطفال.

2001 صدور كتاب **العالم من منظور غربى** وكتاب **رحلتى الفكرية**.

2002 صدور بعض أعمالى الأخرى، من أهمها **الموسوعة الموجزة وديوان الشعر** (أغانى الخبرة والحيرة والبراءة) وبعض الدراسات الأدبية وكتاب **العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة** وكتاب **الحداثة وما بعد الحداثة**.

2004 شارك فى تأسيس الحركة المصرية من أجل التغيير (**حركة كفاية**)، انطلاقًا من إيمانه بألا ينعزل المفكر فى برج عاجى وأن يشارك بفاعلية فى هموم شعبه، ثم تولى منصب المنسق العام للحركة فى يناير 2007.

وقد توفى د. عبد الوهاب المسيرى بالقاهرة عام 2008.

ويقسم د. المسيرى رحلته إلى جزأين، يقول عنهما:

«وبرغم ترابط البذور بالجذور بالثمر، وأحداث حياتى بأفكارى الأساسية، فيمكن القول أن **الجزء الأول** من هذه الرحلة يتناول الكثير من الأحداث التى أدت إلى تكوين الأفكار والنماذج، بينما يشتمل **الجزء الثانى** فى معظمه على شرح للأفكار والنماذج التى تكونت.

فالجزء الأول يُسمَّى «التكوين»، أى **بذور وجذور** التكوين الفكرى لصاحب الرحلة، ويتناول:

الفصل الأول: (**البذور الأولى**)، ويركز على أحداث حياتى فى دمنهور خلال طفولتى وصباى وجزءٍ من شبابى.

الفصل الثانى: (**بدايات الهُوِيَّة**)، ويتناول تلك الأحداث فى حياتى التى أصبحْتُ من خلالها واعيًا بذاتى.

الفصل الثالث: (**فى الولايات المتحدة**)، ويغطى فترة الشباب المتأخر.

الفصل الرابع: (**من بساطة المادية إلى رحابة الإنسانية والإيمان**)، ويؤرخ لعملية انتقالى من المادية إلى عالم أرحب.

والجزء الثانى يُسمى «عالم الفكر»، وأشير إليه بـ(**الثمر**)، ويتناول:

الفصل الأول: (**النماذج الإدراكية والتحليلية**)، ويبدأ بعرض بعض التحولات المنهجية التى واكبت التحولات الفكرية.

الفصل الثانى: (**بعض الثمرات الأولى**)، ويتناول كتاباتى الأولى وبعضًا من جوانب حياتى الفكرية.

الفصل الثالث: (**الصهيونية**)، ويتناول إشكالية الصهيونية وعلاقتى بها، كما يتناول أفكارى حول الصراع العربى الإسرائيلى.

الفصل الرابع: (**الموسوعة: تاريخها**)، ويتناول قصة تدوين أهم أعمالى على الإطلاق.

الفصل الخامس: (**الموسوعة: الموضوعات الأساسية**)، ويعرض ملخصًا لأهم أفكار الموسوعة.

الفصل السادس: (**فى عالم الأدب والفن**)، وأعالج فيه كتاباتى وأفكارى التى ليس لها علاقة مباشرة بالصهيونية، رغم أنها فى معظمها تطبيق لنفس النماذج التحليلية».

تبقى ثلاث نقاط لتوضيح **المنهج** الذى اخترته لأعرض به «ثمار رحلة المسيرى الفكرية»:

أولًا: إن ما يعرضه علينا د. المسيرى على أنه من البذور (رحلة المجتمع التقليدى فى دمنهور) وكذلك الجذور (حياته الثقافية بأسرها) حتى أثمرت (الأفكار)، **تُعتبر كلها بالنسبة لقارئه من الثمار**.

ألا ترى معى أن فى ظل العولمة وما بعد الحداثة وطمس الهوية، تصبح بذور د. المسيرى المستمدة من المجتمع التقليدى والإحساس بالتاريخ ومن القيم والشعائر الدينية والعُرفية من أشهى الثمار؟

ثانيًا: فى رحلتى خلال بستان المسيرى الفكرى عبر طورىّ التكوين وعالم الفكر، تأملت الأحداث كما تأملت الأفكار لاقتطف من كليهما الثمر. لذا سيكون أسلوب عرضى للرحلة هو **الانتقال من ثمرة إلى ثمرة**، وسيكون ما أقدم لك تارة برواية الكاتب وتارة بروايتى

وتارة بروايته بتصرف، تبعًا لمقتضى الحال وضرورة العرض، كما سأضع لكل ثمرة عنوانًا.

ثالثًا: عرض د. المسيرى الجزء الثانى (عالم الأفكار) فى ستة فصول، وقد اخترت (لسهولة العرض وتيسيره) أن أضم الفصول: الثالث والرابع والخامس، والتى تدور حول الموسوعة وحول الصهيونية، فى فصل واحد. فجاء عرضى لعالم الأفكار فى أربعة فصول بدلًا من ستة.

وأخيرًا ينبغى أن أذكر أن أى محاولة تعجز عن أن تجنى ثمار رحلة المسيرى الفكرية كلها، **وليس ما قطفت لك من الثمر بأشهى مما تركت**، ولكنه جهد المقل فى محاولة للتقريب والتبسيط والتلخيص.

وقد أصدرت الهيئة العامة لقصور الثقافة (التابعة لوزارة الثقافة فى مصر) عام 2008، بعد أن **راجعها د. عبد الوهاب المسيرى بنفسه**، ثم أصدرت الطبعة الثانية عقب وفاة المفكر الكبير. ولحرصى على أن تظل أفكار د. المسيرى بيننا، نسترشد بها فى الصراعات التى اشتعلت فى عالمنا العربى ـ خاصة فى مصر ـ بعد ما أُطلق عليه ثورات الربيع العربى، رأيت أهمية إصدار هذه الطبعة الثالثة المُنقحة من الكتاب.

وأختتم المقدمة بأن أقتبس ما قاله أحد الأساتذة الأمريكيين المناقشين للدكتور المسيرى عن أطروحته للدكتوراه، فأقول: «**إن الحياة بعد اطّلاعى على رحلة المسيرى الفكرية تختلف عن الحياة قبل الاطلاع عليها**».